علمتني الحياة

لدكتور أحمد زكي

الاما أكثر ما علمتني الحياة . .

ومما علمتنيه الحياة ، أن التربية الاولى هي الأصل الأول من أصول النجاح في الحياة . وأن مرجع هذا إلى الوالدين ، وإلى البيت ، والى البيئة . وأن التربية الواسعة العريضة ، حتى مع الضحالة ، خير من التربية الضيقة العميقة . وأن العميم في أول الأمر خير من التخصيص . ذلك لأن الرجل منا لايدري ما يأتي به الغد . . اذن لأعد له ، واعد له وحده

فكل احتمالات الغد يجب أن تكون نصب عين المربي . والأب أول مربٍ ، وكذلك الأم . ولو انني ملكت من أمر تربيتي في صغري ما أملك الان ، اذن لتعلمت الرياضة والسباحة والرماية وركوب الخيل ، واذن لتعلمت الرسم والنحت والموسيقى والغناء ، وكل ماوقع في طريقي من صور الفن . واذن لتعلمت اللغات من انجليزية وفرنسية والمانية وايطالية . . ذلك والعمر غض ، ومادة المخ مرنة تلتقط بأيسر جهد . واذن واذن . . .

هذا إلى جانب ما تعلمني المدارس ، فاذا كبرت اتسع اختياري للحقل الذي أعمل فيه لكثرة ماأعددت للحياة من عدة . وليس فيما أعددت ما يذهب أبدا هدرا .

ومما علمتنيه الحياة ، حاجة صاحب العيش الى الاصدقاء . . أن الذي يعيش في الناس لابد أن يعرف الناس ، وأن تعرفه مناس ، وأن يعين وأن يعان . ولقد حرصت على الأصدقاء صغيرا كل الحرص ، وحرصوا وكان الولاء ولاء قلب . . وكلما كبرت وكبر معي الاصدقاء تحول ولاء القلب الى ولاء عقيل ، وولاء حساب ، من جمع وطرح . وثقلت مطالب العيش على الصديق منهم وتزوج فتركزت همومه في داخل اسرته على الرغم ، فقل هو بالذي خرج عنها فبالاحداث

وتدهورت الصداقة فصارت مفاوضات ، فى الخير وفى الشر . . فلم يبق من خير الصديق الصادق يبذله للصديق الصادق الا النصيحة الخالصة . والنصيحة الخالصة شىء عزيز عظيم . فأنا استنصح الاصدقاء الخلصاء . . لا لا تبع ، ولكن لازداد فهما ، ولا درك كيف يرى الناس الامور من زوايا غير زاويتى ، لكون نظ اشمل ، ثم يكون الحكم آخر الامر لى ، ولى وحدى . وكثيرا ما خالفت النصحاء فحمدت العقبة .

* * *

وعلمتنى الحياة كراهة الضيق . . الضيق فى المكتب ، والضيق فى المسكن ، والضيق فى المغدى والمراح . . وكذلك ضيق عقول وضيق قلوب . آن الذى ظهر لنا من هذا الكون دنيا لها افق واسع ، والذى لم يظهر لنا منه له افق بل آفاق أوسع . وليس يناغم الحي الحياة بهذه الدنيا الا بالواسع من كل شىء . وأكره ما أكره من صنوف الضيق ، ضيق الاذهان على أى صورة فى الناس كان . . وما أكثر صورة التى يكون بها فى الناس . وهم يعبرون عنه بالتعصب الذهنى . وقد يتعصب الرجل لرأيه جزافا ، وقد يتعصب لاسرته جزافا ، وقد يتعصب لامته ، أو للونه ، أو لدينه ، أو حتى لعقيدة سياسية تقع عنده انها الصواب ، وسائر العقائد الخطأ . وهذا حمق ذهنى لم أجد وراءه حمقا . واعتداد بالغ بقدرة عقل بعد أن تبين الناس عافى العقول من قصور

اما ضيق القلوب فصفة للقلب الذى لا تدخله الرحمة من باب واسع ، الرحمة التى تسع الناس جميعا ، من كل رأى وكل جنس وكل أرض . الرحمة التى تسع المحسن وتسع المسىء ، وتدرك حقيقة الطبيعة الانسانية فى أوج علاها ، وفى اندرك من حضيضها . فتفهم كل شىء ، وتغفر كل شىء . . الرحمة التى تطول فيطاول بها الانسان رحمة الله

وعلمتنى الحياة وعلمتنى . .

أن الحياة علمتنى دروسا الفا . . هذه الثلاثة منها

على الضوء ولا يتخلى عن طبيعة الجواب إذا تعرض لذلك . تماما كالانسان اللاصق بالتراب لا يحب النور ولا يعرف الاشراق .

وإذا كان الدم والعظم والعروق والغضاريف من التراب بفعل الزرع والضرع. وإذا كانت الفنون والآداب وما إلى ذلك من التجارب وما يتمتع أمامنا من ظروف وملابسات وأقيسة ومفهومات. بفعل العقل واعمال الفكر و إذا كان الهيكل المادى وجه جامد فان الفكر والعقل هذا الوجه المشرق الشفاف . وهما ظلان لحقيقة واحدة فوق المادة وفوق الفكر فقد يحجب العقل ويصوم البدن عن الغذاء وتغمره قوة داخلية تمنحه البقاء والصفاء .

وإذا كان الانسان ليس الا مادة وعقلا وروحا . فان لكل جانب غذاءه ودواءه ولقد قطعت البشرية شوطا بعيدا من ناحية التكييف المادى لملائمة الوجود البشرى فى الزرع والضرع والماوى وما إلى غير ذلك من مادبات طبيعية وصناعية. وفى مجال الكشف العقلى والبحث الفكرى وما كشف عنه من معارف وعلوم . ومعادن وقوانين استخدمت فى شتى المجالات وعديد الحالات . وفى هذا المضمار تطورت البشرية الى مرحلة هامة فهى قد جاوزت الارض ووقفت على عتبة الفضاء بالرغم من أن مشكلتها الحقيقية التى هى النفس ومن أكون أنا. وما حولنا من أرض وما فيها من جبال وجند بيض وحمر مختلف ألوان ذلك . . . وان الفرق بين نزوعى الانسان الخير والشرير هو الذى دفعنا الى الصواريخ والالحاد والتهديد والحروب . ولو كان الخير لما بأرحنا الارض حتى تكون قد عرفنا ما فى أعماقها وبحارها وأسرارها ولتنشئنا عن طرق السلم وقتلنا الحزب واختفى الالحاد .

وأما الجانب الروحى ففى نكسة وهو فى حيرة تكتنفه الاوهام وتحجبه الضلالات ونحاول ستره نزعة الالحاد والتصوف بالمادة لكن لا يغير شذى الورد زكام الانوف المريضة كما يقولون .

ومن هذه القوى يكون وجود الفرد . ومن الافراد الكثيرين يكون المجتمع وكما يكون الفرد بحاجة إلى تنظيم قويم ينسق به الاندفاعات ومدى ما يتاح لكل

نوع وجانب من هذه الجوانب الانسانية : فالجسم وحاجته بحاجة إلى تقدير وميزان وتحديد ماينفعه وما يضره ومايصلحه ومايفسده . إننا نرسم الطريق لتعاملنا المادى للجسم والا لو تركناه ومايرغب وفى كل مجال لاصطدم بالسموم والنار ولهلك وباد دون أن يعمر الديار رغم أن التجارب قد ساعدت على نمو هذه الطرق .

والعقل ليس أقل حاجة من الجسم فى أن يكون له خطة وهدف ووسيلة وغاية. ليس خطر الانحراف العقلى بأقل من إرهاب الذريات والهيدروجينيات . ومثل ذلك الضلال الروحى والتيه القلبى والعمى البصيرى .

وكما أن العود مادته تكون وقودا وخضرته حياة ونعيما . وزهرته ثمرة ترتجى فكذلك الانسان مادته غذاء للدود وعقله رونق سيروى وثمرته الروح الصافية التى تبقى . ومن غير المشاهد والمعقول أن ينبت العود بعيدا عن الارض كما أنه من غير المشاهد والمعقول أن يوجد الانسان ويحيا ويدوم وجوده بعيدا عن الكون وبادىء . ولكن الفرق بين الانسان وغيره من الكائنات يتمثل فى مخاطبته وتعقله ووعيه . وهو من أجل ذلك قد كلف وحمل الامانة ولم يكن له أن يعيش دون ذلك .

ومن هذا وغيره نرى مدى حاجة الانسان إلى التنظيم فردا بين قواه ونوازعه وجماعة بين أفراده وقبائله وشعوبه . وعلى أن هذا التنظيم بشقيه لا يكبت غريزة أو يصادر حاجة . وبالتالى أن يكون به من سعة الصدر ورونة القول والحكم بحيث لا يقف عند حد زمانى أو مكانى. وهذا ما رأيناه واقعيا وتاريخيا بالنسبة للاسلام . فالقرآن الكريم كتاب الاسلام الخالد .

يقرر الحقوق والحاجات والطرق لاشباع الجانب المادى . فيقول . كلوا واشربوا ولا تسرفوا . . كلوا من طيبات مارزقناكم . . من حرم زينة الله التى خرج لعباده ، والطيبات من الرزق . ومن ثمرات النخيل

والاعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا . يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد، يا أيها الذين آمنوا كلوا مما فى الارض حلالا طيباً . إلى آخر ما هنالك من الآيات والاحاديث المذكرة بنعم الله والحاثة على تعاطيها والبحث والتنقيب عن أطيبها . وأنها إنما خلقت لنا ومن أجلنا وحتى ما بعد هذه الدار سيكون الجانب المادى له وجوده ولذائذه .

ففى الجنة لحم مما يشتهون . وفواكه كثيرة لا مقطوعه ولا ممنوعة فيها أنهار من لبن لم يتغير طعمه وفيها أنهار من عسل مصفى وفيها أنهار من خمر لذة للشاربين . فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الاعين . ومن عجب تتوقف متعتنا هناك على عدالة الشكل أو الطريقة التى نحصل بها هنا على هذه الاشياء .

لذلك رسم الكتاب طريقة واضحة ومنهاجا قويما للكسب والانفاق والعمل والتعاطى فاذا هو رخص لنا فى اللذة والمتعة إذ الاصل فى الموجودات بالنسبة لنا الاباحة فانه قد منعنا عن أشياء فيها حتفنا أو ضرر لنا ، فاللحوم مثلا من اللذائذ المادية وهى مباحة لنا . ولكن ليست كل اللحوم ، فقد حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به وكل ذى مخلب من الطير أو ناب من السباع . وما عدا ذلك من لحوم مباح وحلال ولذة ومتعة ، وحتى البحر تستخرجون منه لحما طريا وعلى ألا يكون ضرر أو ضرار أو ظلم للغير أو حيف . والفن والادب تحت عقلية رائعة . وتسبحات فكرية بارعة والاصل فى خلق العقل وانطلاق الفكر الاباحة : أيضا ولكننا لا يجب أن نتطلق إلى ما لا نهاية ولا فى كل مجال . فالخير والحق والجمال غاية سامية وهدف عظيم ينشد الانسان هذه المعانى فى الشعر والقصة والموسيقى والرسم والتصوير والنحت . أما الفحش وعدم الاكتراث بالآخرين وهجر القول وبذاءة اللسان ومرذول الغايات

والتعرض للمساوى والأعراض . والصد عن الحق والخير والجمال . كل ذلك ليس من المستقيم أن يفنى الانسان فيه طاقته أو يبدد حيويته . وما دام النور والجمال والزهر والعطر والحق والخير ، فلا مجال للظلمة والقبح . . والتخبط والتيه فى الاوحال والأعراض . ان الإسلام لا يرضى بالحرمان المادى أبداً وهل أتاك نبأ بعض الصحابة الذى اعتزل الحياة وهجر امرأته اذ قال له الرسول عندما علم بأمره . كل وصم وقم ونم الخ وفى حديث آخر إن لبدنك عليك حقاً ولزوجك عليك حقاً ، ولا يؤمن بالجفاف العقلى أو الانحطاط الفنى . فأول ما خلق الله العقل وأفضل ما خلق الله العقل به يعطى وبه يثيب . وقد كان الرسول عليه السلام يسمع الشعر ويحب مجيديه وليست قصة شعر لبيد بغائبة عن القارى التى قال عنها الرسول كاد لبيد أن يسلم أو كما قال عليه السلام وبانت سعاد . وحسان بين ثابت الخ لذلك كان من الطبيعى ان يمرح الفكر فى ربوع العالم الإسلامى وتتجلى مظاهر النشاط العقلى فيما ترك فلاسفة المسلمين وعلماء الفلك والكيمياء والطبيعة من آثار وعلوم ومعارف .

كانت نوارا وضوءا أيقظ أوربا وأشاع العلوم وكلهم من بيكون إلى دانتى ومن ريشيليو إلى غاليليو بين تلميذ لجامعات الأندلس أو كتب ابن رشد وابن البيطار أو الرازى وابن الهيثم الخ إننا لا نعدو الصواب إذا كنا ننادى بإعادة النظر فى مفهوماتنا عن الدين أولا والعمل على إشراب تنظيماتنا إياه والدعوة إليه فى حرارة وإخلاص ذلك لأنه الحق وفيه الخير والسعادة . ذلك لأننا نحب الإنسان ونتمنى له الأمن والرفاهية والسلام .

حامد محمود الزفرى